بهم تكون الحياة أو لا تكون

د عبد السلام مخلوفي

حين تنسحب الشمس تاركة للظلام الهيمنة و السلطان، و حين تتضاءل حركات البشر لتؤول إلى الخمود و الإنعدام، حين تنتهي ساعات اليوم حافلة بالجد و العبث و بالسعي و البطالة و بالطاعة و العصيان، و بالغفلة و السهو و التيهان.

حين يلف الكون هدوء مظلم و سكون هادىء، قد يكون مبغوضا لكثيرين، لمن يخافون الهدوء و السكون، لمن لا يعيشون إلا في الصخب و الضجيج. إنهم يكرهون الهدوء لأنه يوحي لهم بالوحدة و الوحشة، و يوحي لهم بالهوان و الضعف. إنهم يخشون الهدوء لأنه يكشفهم و يسطهم أمام العزيز الغفار. إنهم قد اقترفوا و يقترفون الذنوب و الآثام في وسط ذلك الصخب و تلك الأصوات لأنها تحجب عقولهم و تغطي قلوبهم، فلا تكن لديهم فرصة إلا فيما يشتهون و يهوون، و فيما يلعبون و يعبثون، لكن عندما تصمت تلك الأصوات و ينتهي ذاك الضجيج، عند ذلك تنكشف عقولهم و تصحو قلوبهم، فيخضعون إلى سلطان المحاسبة و التأنيب و الندم.

كثير من الأشخاص يحسون بضعف شخصيتهم و بالإنتقاص من قدرهم إذا حاسبوا أنفسهم أو أنبتهم ضمائرهم، أو ندموا على أفعالهم.

و قد يكون محبوبا لقليلين، بل هم يجدون فيه لذتهم و راحتهم و سعادتهم و مأدبتهم، يلجأ الناس إلى مضاجعهم يغطون في نوم طويل، و قد أغمضت أعينهم و استراحت ضمائرهم و عقولهم فاستسلموا لنوم عميق.. في هذه اللحظات و عند ذاك تفتح أعين أخرى و تقفز ضمائر أخرى، و تهفو قلوب أخرى. تقبل هذه النفوس على الله في شغف و حب، و في خوف و رجاء. هي تعلم أن الدنيا ساعة لا خير فيها إن خلت من الطاعة. هي تدرك معنى الحسنات و الذنوب و معنى رضا الله و غضبه، و معنى الحب الحقيقي، و تدرك معنى الجنة و النار. تتضرع إلى الله في خشوع و تذلل أن يغفر لها الذنوب و الآثام، تنكب جباههم على الأرض ساجدين، داعين باكين، يرجون رحمته و يخافون عذابه: ربنا يا حبيبنا إنا لنستحيي أن نقف بين يديك مذنبين عاصين، ظالمين لأنفسنا، و لكن عافيتك أوسع لنا. يا ربنا جئناك تائبين مستغفرين، فتقبلنا عندك، ربنا إن طردتنا فمن ذا غيرك يقبلنا. ربنا ليس لنا إلا بابك نطرقه نبتغي رضوانك و إحسانك. ربنا نحن في هذا الوجود هينين حقيرين إلا بعزتك، ضعفاء إلا بنصرتك، ضالين إلا بهدايتك. لو سلطت علينا أضعف جندك أو أحدا من خلقك لهلكنا، و لكن رحمة بنا تتجاوز و تصفح. ربنا ذنوبنا بلغت عنان السماء، تجاوزنا في المعصية و الطغيان، فتجاوز عن سيئاتنا و ارحمنا يا رحيم يا رحمن.

في وسط ذاك الهدوء تسمع لتلك النفوس أنينا تنفرج منه الضلوع، أنين التائبين الصادقين تلح في الدعاء إلحاحا موقنة بالإجابة، تقضي الليل كله على هذه الحال. خشوع و تذلل، أنين و دموع، خوف ورجاء حتى يسفر عنهم الظلام، فتصعد الشمس معلنة عن يوم جديد و عن استئناف الحياة من جديد. و كأن الحياة ليست إلا على ضوء الشمس و في وضح النهار. لكن تلك النفوس تدرك أن الحياة الحقيقية بالإضافة إلى هذا هي تلك اللحظات الليلية الغالية التي يحتكرونها لأنفسهم، و لا يشركهم فيها أحد.

تعج الحياة من جديد، فيعصى الله سرا و علانية، تنسى نعمه و آلاؤه، يكفر بها و يجحد بها. فتحس و كأن عذاب الله يوشك أن يعمنا، و كأن البلاء سيصب علينا صبا. لكن بفضل تلك النفوس النقية التي تتضرع إلى الله بالأسحار، و تستغفره آناء الليل و النهار يصرف عنا قيوم السموات و الأرض البلاء و العذاب. ألم تسمع إلى قول الحبيب مُحَمَّد: " لولا بهائم رتع، و صبيان رضع، و شيوخ ركّع لصب علينا البلاء صبا"، و ألم تسمع لبيان رب العباد " إني لأهم بأهل الأرض عذابا، و كلما نظرت إلى عمار المساجد، و المستغفرين بالأسحار، صرفت العذاب عنهم"

لو نظرت إلى الأرض من عل لاتضحت لك نقاط مشرقة، و لتميزت لك بقع مضيئة و سط ظلم و ظلام و هرج و مرج. هذه النقاط هي التي تحفظ للكون توازنه الطبيعي و تمد في عمر الحياة إلى أجل مسمى. هذه النقاط هي تلك النفوس المؤمنة الطاهرة.

البشر في تعاملهم اليومي يجهلون و لا يعلمون مقياس تقدير الناس. كل من يجلب لهم نفعا ماديا أو مصلحة دنيوية، فذاك حبيبهم و خليلهم ناسين تلك النفوس الخيرة و الأرواح الطاهرة التي بفضلها الله يرحمنا و يغفر لنا.

حق على كل كائن و كل متحرك و ساكن أن يدع لتلك النفوس و أن يضعها موضع التقدير و الحب و الإحترام، فبها تكون الحياة أولا تكون.